

الحدائفة الغربية وإعادة صباغة الإنسان، رؤفة المسيري للآليات والمآلات

Western Modernity and the Reshaping of the Human: Al-Missiri's Vision
of Mechanisms and Outcomes



بن أيوب محمد*

جامعة الجزائر 1

M.benayoub@univ-alger.dz

تمزغين محمد

جامعة الجزائر 1

m.timezghine@univ-alger.dz

تاريخ الاستلام: 2025/02/09 تاريخ القبول 2025/05/05 تاريخ النشر 2025/06/03



ملخص:

تحاول الورقة أن تقدم تصور المسيري حول آليات الحدائفة الغربية في إعادة صباغتها للإنسان، انطلاقا من تحولات مفهوم الإنسان في الفكر الفلسفي الغربي وكيف ساهمت الفلسفة المادية في هذا التحول، ثم عرض لأهم آلياتها المتعددة من العقل المادي الذي يعتبر الركيزة الأساسية في تأليه الإنسان، ثم الترشيد المادي الذي ساهم في النقلة النوعية لإعادة الصباغة، وصولا إلى نهاية التاريخ باعتبارها النقطة النهائية التي يرنوا إليها الإنسان الحدائي، كما قدمنا إشكالية ضعف المرجعية الدينية والفلسفات الإيمانية الإنسانية في الدفاع عن الإنسان، لنختتم بالمآلات التي تعصف بوجود الإنسان ككائن إنساني وربما ككائن حي.

* المؤلف المراسل

الكلمات المفتاحية: الحدائة الغربية، الإنسان، الفلسفة المادية، المسيري، نهاية التاريخ، الترشيذ المادي، العقل المادي.

Abstract:

This paper aims to present Al-Missiri's vision of how Western modernity reshapes human beings, starting from the transformations of the concept of the human in Western philosophy and the role of materialistic philosophy in this transformation. It then presents the most important mechanisms, including the materialistic mind as the cornerstone of human deification, and materialistic rationalization, which contributed to a qualitative shift in this reshaping, leading to the idea of the end of history as the ultimate goal of the modern human. The paper also highlights the problem of the weakness of religious and humanistic philosophical references in defending humanity, concluding with the consequences that threaten the existence of human beings as human beings and perhaps as living beings.

key words: Western modernity; Human; Materialistic philosophy; Al-Missiri; End of history ;Materialistic rationalization; Materialistic mind

مقدمة:

تقف الإنسانية خلال العقود الأخيرة على تغييرات جذرية تعصف بوجود الإنسان كإنسان وربما ككائن حي؛ اعتبارا للتطورات العلمية والتكنولوجية والتقنية التي أفرزتها الحدائة الغربية في طموحها لتأسيس فردوس أرضي خال من الآلام والمنغصات. لقد سعت هذه الحدائة في تمجيدها للإنسان والإعلاء من شأنه أن تحرره من كل قيود دينية أو أخلاقية، وأن تجعله يسمو بعقله في تعزيز مكتسباته المعرفية في السيطرة على الطبيعة وعلى نفسه، وفي تطوير قدراته المعرفية والجسدية في مجابهة المخاطر التي قد تهدد نماءه وازدهاره، لكن رغم هذه التطورات المعرفية والتكنولوجية التي حققتها الحدائة لا يزال الإنسان يعيش أزمة معرفية وكونية شديدة، فاغترابه وتشبيته وتسله أضحت تندر بفقد الإنسان لإنسانيته، فلم تعتقه الحرية من أسره ولم تنله الحدائة السعادة التي وعدته.

لقد انصب اهتمام المسيري في انتاجه المعرفي بدرجة كبيرة على نقد الحدائث الغربية وتأثيرها على العالم وعلى الإنسان بدرجة أخص، انطلاقاً من نموذجها المعرفي المادي المعادي للطبيعة الإنسانية المتجاوزة، لذلك يعتقد المسيري أن الفلسفة المادية تشكل الرؤية المعرفية للحدائث الغربية؛ باعتبارها فلسفة تستبعد كل الأبعاد الميتافيزيقية والدينية التي لا يوجد لها تفسير مادي، وتحاول أن تعيد تشكيل العالم ومن بينهم الإنسان حسب نموذجها الفكري حتى يسهل التحكم فيه ومن ثمّ تطويره وتغيير طبيعته. فهل نجحت الفلسفة المادية في إعادة صياغة الإنسان واستبعاد الجوانب الروحية والمتجاوزة منه؟ ماهي آليتها التي استعملتها وماهي المآلات التي تصبو إليها؟ هل ما بعد الإنسانية كتيار نقدي نتاج الفلسفة المادية أم تعبير عن رفض وضعية الإنسان الحالية؟ ما هو مصير الإنسان كإنسان متجاوز أمام الثورة التقنية والتكنولوجيا؟

لقد انطلقنا في ورقتنا العلمية بطبيعة الحال من مؤلفات المسيري في عرضه للفلسفة المادية وتأثيراتها على الإنسان والطبيعة، أهمها الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، العلمانية الجزئية والعلمانية الكاملة، دراسات معرفية، وغيرها من المؤلفات. كما استفدنا كثيراً من عدة مقالات أهمها:

- الأوراق البحثية المنشورة في كتاب صورة الإنسان بين المرجعيتين الإسلامية والغربية الصادر عن المعهد العالمي للفكر الإسلامي.
 - تحولات مفهوم الإنسان في فلسفة الحدائث وفلسفة ما بعد الحدائث، مصطفى كيجل
 - سؤال العلمنة من المسار الإبيستيمولوجي إلى الحدث الأنطولوجي، ريوح البشير، مجلة إسلامية المعرفة
 - الإنسان الفائق من نيتشه إلى فلاسفة ما بعد الإنسانية عبد الغاني عليوة
- ونهدف من خلال هذا المقال إلى:

- ابراز النقد الإسلامي للحدائفة الغربية في تأثيرها على الإنسان ممثلة في مشروع المسيري
 - الوقوف على التغييرات المعرفية التي طالت مفهوم الإنسان في الفكر الغربي.
 - عرض وتحليل رؤية المسيري حول آليات الحدائفة في إعادة صباغة الإنسان.
- كما اعتمدنا المنهج الوصفي والتحليلي في عرض آراء المسيري في نقد الحدائفة الغربية للوصول إلى الإلمام برؤية المسيري في نقده لجانب من جوانب الحدائفة الغربية المتعددة.

المبحث الأول

تحولات مفهوم الإنسان والفلسفة المادية

المطلب الأول: تحولات مفهوم الإنسان

إن المتأمل في المجتمعات البدائية القديمة أو حتى في المجتمعات الإقطاعية لا يلحظ الإنسان كفرد يمتلك الخصوصية والتفرد والأصالة، ذلك أن هذه المجتمعات القديمة تسيطر عليها فكرة الجماعة والوحدة والتماسك وتغيب عنها مفاهيم التفرد والتميز والاستقلال، فالفرد يخضع لسلطة الجماعة خضوعاً تاماً ولا يستطيع أن ينفك عنها أو أن ينفك عن عاداتها وقيمها وأعرافها، فحتى في أكثر المجتمعات تحضراً وتألماً مثل اليونان لم يحظى الإنسان كفرد بأية مكانة خاصة كما لم يحظى بالاهتمام الكافي من قبل الفلاسفة، ذلك أن الفلسفة اليونانية قد صبغت جل اهتمامها على تفسير الظواهر الطبيعية وتحليلها، واتجهت لدراسة الماورائيات والبحث عن الكليات والمطلقات، مع تجاهل كبير للإنسان والفرد، لكن السفسطائيون كانوا السباقين في تنوير فلسفة ذاتية تؤكد أهمية الذات وتوجه النظر للإنسان حتى اعتبره بروتاغوراس مقياس كل شيء، ثم تبعهم سقراط في هذا المنحى فوجه الدراسات الفلسفية نحو دراسة الإنسان وقد روى شيشرون عن سقراط أنه: "أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض"¹

الأكثر وثنية».⁵ فاتحا أفاقا جديدة واكتشافات مذهلة لعصر علمي كان له الأثر البارز في إثبات الإنسان لذاته والانتقال بالعالم الغربي إلى مرحلة تاريخية فارقة.

كما كان لهذا التحرر أثر بارز في تحرير النظر العقلي من سلطة الدين وتوجيه التفكير نحو الذات باعتباره مصدر المعرفة: «ومن هنا فقد جاء ببيكون وديكارت، ووضعوا الدين بكل احترام خارج الأنظار العقلية وعملا تأسيس الفلسفة الحديثة بالاستناد إلى العقل وحده».⁶ لقد كان لديكارت دور كبير في نمو الفردانية في عصر التنوير بإثباته ذاتية الإنسان وإرادته الحرة، كما كان لكانط دور أكثر وضوحا في الأخلاق الكانطية، إذ يرى كانط أن كل الأحكام الخلقية تكون مرفوضة إذا لم تتلاءم مع الإرادات الخاصة، فالذات الفردية هي صانعة القانون العام.⁷

لقد كان التأكيد على مركزية الإنسان أكبر التحولات التي حدثت في عصر الهدأة، فالإيمان بقدراته وإبداعاته والوصول بها إلى أقصى حدود الكمال كان أهم ما بشرت به الهدأة، بل إنها أحلته محل الإله وانقلبت عن الرؤية اللاهوتية للقرون الوسطى التي ترى في الإنسان حامل الخطيئة، أي أنّ نظرية أصالة الإنسان الهيومانيزم كما يقول شريعتي: «فلسفة ظهرت منذ عصر النهضة وما بعدها، مقابل الأديان الإلهية، الأديان التي تستند إلى الغيب وما وراء الطبيعة وقد حدّدت هدفها بإعطاء الأصالة للإنسان».⁸

لم تمضي مدة طويلة على الحركة النهضوية والتنويرية حتى حدثت تحولات اقتصادية وسياسة كبيرة في بدايات القرن 19 وحتى منتصف القرن 20 أدخلت الإنسان في أزمت عميقة شعر فيها بالضيق والاعتراب بعد أن وجد نفسه مستغلا مع ملايين المقهورين في مصانع ومعامل الرأسماليين، ومجنّدا في الحروب الاستعمارية التوسعية داخل وخارج وأوروبا: «لقد فقد إنسان القرن العشرين عالما ذا معنى وذاتا تعيش في المعاني انطلاقا من محور روحي، وجذب عالم الأشياء الذي أبدعه الإنسان إلى ذاته، ذلك الإنسان الذي أبدع

هذا العالم والذي فقد الآن ذاتيته فيه، لقد ضحى الإنسان بذاته على مذبج منتوجات»⁹.

لكن هذه الأزمات والهزات جعلت الإنسان يتفطن للوضعية التي آلت إليه ذاته، وأصبح ينظر إلى العلوم الإنسانية نظرة معادية، ذلك أنها حطت من قيمته وجعلت منه موضوعاً مثله مثل باقي الكائنات وطبقت عليه ما يطبق على المادة من تصورات وقوانين¹⁰ فظهرت: «فلسفة الحياة لدى نيتشه والفلسفة البراجماتية لدى وليام جيمس ومع الفلسفة الوجودية يبدأ الاتجاه نحو الإنسان، ومع كيركجارد ونيتشه تبدأ الفلسفة الذاتية الشريفة رافضة للمطلق والكلية مؤكدة الفردانية والتعدد. ومنذ ظهور الفردانية والذاتية في الفلسفة الوجودية وفلسفة الحياة والفلسفة البراجماتية يبدأ عهد جديد، وثورة جديدة من التفكير، ويبدأ الاتجاه نحو الذات بعد أن استغرقتنا الموضوع والموضوعية بكل تياراتها»¹¹.

لقد تطرفت الفلسفة الحديثة في تمجيد الإنسان والتأكيد على قدراته الإبداعية مثلما عبر عن ذلك بكل جرأة نيتشه. فإعلانه لموت الإله أو الإنسان الذي يرتبط بالقيم والمثل العليا - أو كما يسميه المسيري بالإنسان الرباني - نزوح للإنسان عن المركزية التي وضعته فيه الحدأة الغربية، وتمهيد للإعلان عن موت الإنسان ونهايته كما عبر عن ذلك ميشال فوكو بقوله: «لا يسع المرء إلا أن يقابل بضحك فلسفي كل من لا يزال يريد أن يتكلم عن الإنسان وعن ملكوته وعن تحززه... فسيضمحل الإنسان مثل نقش على رمال الشاطئ تمحوه أمواج البحر، بدأ العالم من دون الإنسان وسينتهي من دونه، وما يتأكد في أيامنا هذه ليس غياب الإله أو موته بقدر ما تتأكد نهاية الإنسان»¹². وبهذا دخل الإنسان مرحلة جديدة من مراحل تواجده كإنسان وهي مرحلة ما بعد الإنسانية التي تقوم على موت الإنسان والتحرر من الإنسان الواعي الفاعل المبدع.

إن مفهوم ما بعد الإنسانية يشكل تحديا معرفيا كبيرا للمفكرين والفلاسفة، وبشر الكلبير من النقاشاء الفكرية والفلسفية العميقة، ذلك أنه يناقش بحدة مستقبل الإنسان وطبيعته خلال العقود القادمة، فبعد أن تنبأت فلسفة ما بعد الحدأة بموت الإله وموت الإنسان تأتي اليوم التقنية لبشرنا بالإنسان الفائق، الذي يدشن عصرا جديدا من عصور تطور مفهوم الإنسان. فالإنسان الفائق هو تعبير عن تجاوز ما قد يكون نقصا ومحدودية في الإنسان، وإحلال لنماذج جديدة تكون أكثر قدرة وفعالية، ما يجعل هذا الوجود صناعة إنسانية عن طريق السيطرة على الحياة العضوية، تمهيدا للكمال الإنساني المعلن عن قدوم إنسانية جديدة لصانعة لمصيرها¹³ فإن مصطلح ما بعد الإنسانية يعني: «هي حركة فلسفية وثقافية تهتم بتعزيز الطرق المسؤولة لاستخدام التقنيات قصد تحسين القدرات البشرية وزيادة مدى ازدهار الإنسان»¹⁴

مما سبق نلحظ تحولا كبيرا في مفهوم الإنسان على مدار تاريخ الإنسان وتغييرا جذريا لمكانته وطبيعته في العقود الأخيرة والقادمة، وكان لهذا التغيير الكبير جانب من التأثير الديني والسياسي لكن نعتقد أن الجانب الفكري والفلسفي كان لها الأثر الأكبر في هذه التحولات الكبرى التي وقعت للإنسان وانعكست ولا تزال بشكل كبير على مكانة الإنسان في العالم وعلى مسؤوليته والتزاماته الأخلاقية والإنسانية على نفسه وعلى العالم والطبيعة، فهو الآن يمر على مرحلة عاصفة من تواجده كإنسان بل ربما ككائن حي. فما الذي أوصل الإنسان إلى هذه الوضعية وكيف وصل إليها؟

المطلب الثاني: الفلسفة المادية عند المسبرى

يعتقد المسبرى أن الفلسفة المادية تعبير عن النموذج الكامن والخلفية الفكرية للكبير من الفلسفات والأفكار الحديثة، ذلك أنها تشكل الإطار المرجعي الكامن في رؤيتها للإنسان والعالم والطبيعة، وهي وإن تعددت وتباينت تمظهراتها فإن منطلقاتها ومبادئها المعرفية متطابقة.

يؤمن بثنائية الإنسان/الطبيعة والتركيز فقط على الجوانب الطبيعية ورد كل شيء إليها وهو عكس ما تطرحه الرؤية الدينية والفلسفية التي تؤمن بوجود أبعاد طبيعية وأخرى روحية تشكل طبيعة الإنسان وبيئته المسيري بقوله: «فالوظائف البيولوجية والنشاطات الطبيعية (مثل الصيد وصنع الأدوات) هي التي جاءت من الأرض، أما النشاطات الأخرى (مثل الدين والفن) فهي ليست من سمات الإنسان الطبيعي وإنما من سمات الإنسان، وهو كائن مركب متعدد الأبعاد، فُلقي يسأل أسئلة كلية، يحمل عبء الهوية والمسؤولية الخلقية، لا يمكن اختزاله في صيغ رياضية كمية كما لا يمكن رده في كليته إلى عالم الطبيعة/المادة وواحديته المادية، ولذا فهو يعيش ثنائية فضفاضة لا يمكن إلغاؤها».¹⁷ إن اختزال الإنسان في جوانبه الطبيعية حط من قيمته وسحب لكرامته وانسلاخ عن إنسانيته وإبعاد له عن المركزية التي وضع فيه والاستخلاف الذي شرف به وجعله كائن من الكائنات الطبيعية التي تطبق عليه ما يجري قوانين الطبيعة.

المبحث الثاني

آليات الفلسفة المادية

اعتمدت الفلسفة المادية آليات متعددة ومتنوعة تحدف من خلالها إلى إعادة صياغة الإنسان

المطلب الأول: العقل المادي.

لقد أقامت الفلسفة المادية أسسها على العقل المادي واعتبرته الآلية الأساسية التي تركز عليه لنشر قيمها وتوسيع رقعة انتشارها، بما يحتويه من خصائص وأساليب وقوانين تبرر الأساليب المادية، لذلك يعتقد المسيري أن هناك تطابقا كبيرا بين قوانين العقل المادي وأسس الفلسفة المادية، مما جعل الفلسفة المادية تستغل العقل المادي في جعل الإنسان يبتعد عن إنسانيته ولا يركز إلا على الأبعاد الطبيعية منه. فما العقل المادي وما خصائصه وما هو إسهامه في نشر المادية؟

يذهب المسيري إلى أن هناك تباينا كبيرا في تعريف العقل في الفكر الفلسفي الغربي، فبعد أن كان هناك تأرجحا في تحديد طبيعته، والميل إلى احتوائه على أفكار فطرية ومبادئ أولية، يحسم الماديون الأمر ويذهبون إلى أن العقل صفحة بيضاء لا تتكون أفكاره إلا من خلال المعطيات الحسية التي تتراكم عليه لتشكل أفكار بسيطة ثم تتحول إلى أفكار مركبة، ومن خلال عملية التركيب نحصل على الأفكار الكلية والمطلقات.¹⁸ لكن هذه الأفكار الكلية والمطلقات وكذلك القيم والغايات الإنسانية لا تدرك إلا من خلال نموذج مادي/طبيعي لأن العقل غير قادر على التجاوز، فإنه يردّ كل شيء إلى المادة وقوانينها الحتمية الثابتة غير الإنسانية وهذا بفك الظواهر الطبيعية عن أي ارتباط أخلاقي أو غيبي. فتصبح مهمة العقل الإنساني الأساسية هي دراسة قوانين الطبيعة/المادة من غير أي خلفية أخلاقية أو إيمانية.¹⁹

والعقل باعتبار المرجعية المادية مكن الفلسفة المادية من جعله آية من أهم آياتها في نشر قيمها والهجوم على الطبيعة الإنسانية، والقضاء على كل مرجعية متجاوزة، فمميزات العقل المادي وصيغ نظامه تكرس الأسس المادية وقد عدّ المسيري جملة من هذه القوانين وكيفية مساهمتها بأساليبها المخصوصة في طمس الظاهرة الإنسانية، نلخصها فيما يأتي:

- العقل المادي يستطيع رصد الأشياء كما تبدو له وبدقة عالية، فهو يعرف حجمها كثافتها وكل صفاتها المادية، لكن لا يستطيع إصدار قيمة أو حكم لها أو التعرف على غايتها أو ما ينبغي لها، فهو يفشل في التمييز بين الأحكام الأخلاقية وغير الأخلاقية أو بين الإنسانية وغير الإنسانية.
- العقل المادي قادر على رصد وتركيب التصورات المادية ومعرفة ما يتشابه منها وما يتجانس لكن غير قادر على ملاحظة خصوصية الإنسان وتركيبته، فهو لا

ومميّزات وقوانين العقل المادّي أنتجت أسلوباً جديداً ومهمّاً في نشر المادّيّة وتوغلها وهو الترشيد فإذا كان العقل المادّي قد حدّد الإطار المعرفي فإنّ الترشيد قد انصرف إلى الظواهر الإنسانيّة والطبيعة ليطبّعها وحتى تتوافق مع قوانين وأسس العقل المادّي وفي هذا الإطار قال المسيري: «وحيثما يتمّ الترشيد من خلال العقل المادّي، وفي إطار النموذج المادّي، يصبح ترشيده مادّيّاً هدفه إعادة صياغة المجتمع الإنساني (بل الإنسان نفسه) عن طريق تفكيكه وإعادة تركيبه ليتوافق مع معطيات العقل المادّي»²³ فما هو الترشيد المادّي وكيف ساهم في تطبيق الرؤية المادّيّة في مجالات الحياة؟

المطلب الثاني: الترشيد المادّي

تعتبر عملية إعادة تشكيل عقل الإنسان وتغيير نموذجه الفكري إلى عقل مادي يلغي الاعتبارات الميتافيزيقية المتجاوزة عملية معقدة وصعبة، ذلك أنّها تحتاج إلى آلية قوية قادرة على إحداث فارق وتحقيق وثبة. ويعتقد المسيري أن آلية الترشيد أهمّ آليات إعادة صياغة الإنسان وآليات العلمنة الشاملة، وهو كما يعرفه ماكس فيبر بأنه: «عملية تزايد الضبط المنهجي على كل مجالات الحياة، على أساس تصوّرات علمية، وقواعد مبادئ عامة تستبعد الولاءات التقليدية، والحماس الكاريزمي والوسائل السحرية، والمرجعيات المتجاوزة لعالم الحواس والمادة والمبادئ الفردية وبحيث يدرك الإنسان أن العالم يتحرك وفقاً لقوانين عقلانية مادية قابلة للاكتشاف، أي كامنّة فيه، وليس وفق قوى غامضة غير محسوبة مستعصية على الفهم»²⁴

يعتقد المسيري أن الترشيد المادي قد ساهم مساهمة كبيرة في انتقال المادية من الهامش إلى المركز، وذلك من خلال الحد من القيم الدينية والأخلاقية بطريقة غير مباشرة، بشكل تدريجي وبصفة متصاعدة في مختلف مجالات الحياة، بإضفاء التفسيرات المادية في فهم الواقع، والتوصّل إلى المعرفة، ومناهج التعامل مع الظواهر، وتصنيف العلوم والنماذج السياسيّة ونماذج الإدارة،²⁵ بعد أن تمّ تغييب المفاهيم المتجاوزة عنها. وساعد على ذلك

استشارة النوازع المادية للإنسان الغربي التي أعطت له قدرة تفسيرية عالية ومكنت الترشيد أن ينصرف إلى رغباته وأحلامه وطريقة عيشه وكل المجالات الخاصة به للتحكم فيه وتحويله إلى إنسان وظيفي لا يحمل أعباء أخلاقية أو اجتماعية إذ: «يمكن القول بأنّ الترشيد المجرد من القيمة هو في واقع الأمر إعادة صياغة للمجتمع ككلّ عن طريق تفكيكه واستبعاد سائر العناصر المركّبة التي تستعصي على القياس، العناصر الإنسانيّة أو الربائيّة، التي يتركّب منها، وإعادة تركيبه على هدي المعايير العقلية والعلمية الواحديّة المادية، ومن ثمّ يتوافق هذا الواقع الاجتماعي مع القوانين العلمية الواحديّة الصارمة ويخضع للاختبارات والإجراءات الكميّة وللقياس»²⁶ وبعد إعادة صياغة الإنسان والواقع يمكن التحكم فيهما فيتحقّق بذلك حلم البيوتوبيا حين يكون كلّ شيء خاضع للرقابة والتحكّم.

يعتقد المسيري بأن الدولة القومية هي الوحيدة التي يمكن لها تنفيذ عملية الترشيد لما لها من الآليات والسلطات ما لا يمتلكه أحد اليوم ولا يمتلكه حاكم من قبل، ذلك أن هذه العملية عملية معقدة تحتاج إلى جهد كبير وتتطلب وقتاً طويلاً للوصول إلى كل الأماكن التي يعيش فيها الإنسان حتى يتم التحكم فيهم وإعادة صياغتهم وتحويلهم إلى كائنات وظيفية يسهل تسييرها والتنبؤ بسلوكها، ذلك: «أنّ الدولة هي أكثر المؤسسات التي صنعتها يد الإنسان قرباً من حالة الطبيعة من الناحية البنيوية فلسفياً، فالدولة تتبع قانوناً شاملاً ومستمرّاً يشمل الوطن بأسره وهو قانون ثابت مطرد حتمي وآلي، كامن في الدولة. وهي لا تكترث بالفرد أو الإنسان، فهي مجرد وسيلة لتحقيق غاياتها ومصالحها»²⁷

ويظهر جلياً مدى نجاح الدولة في السيطرة على الإنسان وبسط نفوذها على كل تحركاتها وفصله عن كل المؤسسات الدينية أو الاجتماعية، فقد تم تغيير المناهج الدراسية بما يتناسب مع القيم العلمانية وفصل الدين عن كل جوانب الحياة، فلم يعد الدين إلا

إمانا شخصلبا؁ وتضففق مفعول الأسرة و الجماعات الوسفطة؁ وتوسفع رفة الءفا العامة والمءمع المءنبف الءف تءءكم ففه الءولة بشكل مباشر؁ ولم فءوقف ءوغل الءولة عنء هءا الء بل انءقل إلى ءاأل فكر الإنسان ووءءانه وقرء أسعفها فف هءا ءءطور غير المسبوق للءقنفاء الءءفئة وأءوات الرقابة من الءواسفب والكامفرات والاقمار الصناعفة وءقنفاء الءكاء الاصطناعف وءف العلوم البفولوجفة الجفنفة الف وظيفءها الءولة للءء من ءءركات الإنسان والءنبؤ بسلوكاته فغءا ما فشبه العجفنة الطفعة والقابلة للءصمفم الاصطناعف على أفءف الءولة وءبرائفها المهرة.²⁸

لقرء أصبء الإنسان مغلوب على أمره فهو فءصرف كما ءرفء منه الءولة أن فءصرف؁ وفءءرك فف الءوءوف الف ءرسمها له؁ لقرء ءم الاستفلاء على وءءانه وفكره؁ فأصبء لا فكءرء بالمرفعفاء أو الأخلاقفاء أو أف ءصوففاء؁ ءلك أن عملفة ءرشفء ءءنقل: «من المءمع وظاهر الإنسان الفرء إلى باطنه؁ أف ءطبّق علىه هو الآخر الواءءفة الماءفة ءءسبع أفة ءصوففة أو ءركفبفة أو عناصر إنسانفة (غير طفبففة/ماءفة) مءمفزة عن ءركة الطفبعة/الماءة ولءا ءؤءف عملفة ءرشفء إلى أن فءفء الإنسان نفسه وفسكء أفة ءساؤلات أخلاقفة ءءصل بالءفر والشر؁ وما هو مشروع أو غير مشروع. ونظراً لانءغال الإنسان بالإءراءاء فهو لا فعمل ضمفره بل ءءى عقله (أف أن عملفة ءرشفء ءؤءف إلى فقءان الإنسان لرشفءه)».²⁹

وقء ساعء على اسءبءان الفكر الماءف أفكار وفلسفاء ءفبفة على لها الأءر البارز فف ءءرفء الءاء الإنسانية من ءاءفءها والنظر إلفها بنظرة موضوففة مءرءة؁ وءلك العلم الءءف فءرصه على الموضوففة والءفاءفة والءءرفء من العواطف وءءم الأءمام بالقمم الغائفة والإنسانفة؁ ساهم فف ءعمفق هءه النظرة الموضوففة.³⁰ كما أكدء هءه الفلسفاء أن الإله أو الغائفاء الإنسانية لفس مصءرا للأءلاق وإنما المءمع والعلم هما اللءان

يحددان أخلاق الإنسان وقيمه. كل هذا وغيره ساهم في تعميق الترشيده المادي للإنسان والتحكم في سلوكه والانتقال به إلى سياق جديد يتحرك فيه.

إن إنسان ما بعد الحدائة هو الإنسان الذي خضع للترشيده المادي الإجرائي الذي تعامل معه كما يتعامل مع مواد الطبيعة، مما جعله كائناً متحكماً فيه قادر على إعادة صياغته، لا يستطيع المقاومة والتحرك ولا يمتلك أي قدرة على التفاعل فهو إنسان تم تدجينه وأصبح مجرد وسيلة لا يمتلك أية أبعاد غائبة أو إنسانية، ويعتقد المسيري أن هذا النوع هو الذي يهيمن في عصر ما بعد الحدائة.³¹

بعد هيمنة إنسان ما بعد الحدائة ينتهي الإنسان الذي يحمل النفخة الإلهية، ويظهر الإنسان ذو البعد الواحد، ويصل الترشيده المادي إلى غايته ونهايته، معلنا عن عصر جديد هو عصر نهاية التاريخ وبداية الصيرورة المادية.

المطلب الثالث: نهاية التاريخ

تسعى الفلسفة المادية من خلال مفهوم نهاية التاريخ إلى رسم نقطة نهائية وهدف مغري لكل من يتبنى النموذج المادي ويسعى إلى تحقيقه، فنهاية التاريخ تشكل حلم ومطمح كل الشعوب منذ فجر التاريخ في تأسيس الفردوس الأرضي الذي يقضي على آلامها ومشاكلها، فهم لذلك سيتسلمون لعمليات الترشيده المتصاعدة ويتحمّلون سلبياتها، وفي نفس الوقت هو النتيجة الحتمية لعملية الترشيده في الإطار المادي، وتعني عبارة نهاية التاريخ عند المسيري أنّ: «التاريخ، بكلّ ما يحويه من تركيب وبساطة، وصيرورة وثبات، وشوق وإحباط، ونبل وخساسة، سيصل إلى نهايته في لحظة ما، فيصبح سكونياً تماماً، خالياً من التدافع والصراعات والثنائيات والخصوصيات، إذ إنّ كلّ شيء سيُرَدُّ إلى مبدأ عام واحد يُفسّر كلّ شيء (لا فرق في هذا بين الطبيعي والإنساني). وسيسيطر الإنسان سيطرة كاملة على بيئته وعلى نفسه، وسيجد حلولاً نهائية حاسمة لكلّ مشاكله وآلامه».³²

يعتقد المسيري أن الفكر الاليني والفلسفي الغربي يحوي إشارات عميقة لمفهوم نهاية التاريخ، فعقيدة المخلص التي هي مفهوم مركزي في العقيدة المسيحية واليهودية وحتى بعض المسلمين (صهيون . مملكة المسيح . المهدي المنتظر) . دليل على أن هناك أمل كبير من الشعوب في القضاء على الشر والصراع في العالم، والتنعم بحياة فردوسية خالية من المشاكل والآلام. ومنذ عصر النهضة عزز هذا المفهوم الاليني مفهوم دنيوي آخر وهو اليوتوبيا التكنولوجية خاصة مع التقدم العلمي، فأصبح الإنسان يؤمن بنفسه أكثر من أي وقت مضى، ساعيا إلى إيجاد حلول لكل المشاكل التي تعترضه والسيطرة عليها بل حتى السيطرة على نفسه والتنبؤ بسلوكه، ليدخل مرحلة جديدة من توجده كإنسان تدار حياته وفق العقل المادي الذي يلغي الاعتبارات الاجتماعية والتاريخية والإنسانية ولا يؤمن إلا بالعلم الطبيعي والقوانين المادية، التي تساعد على تحقيق اليوتوبيا التكنولوجية التكنولوجية، التي تضع حلا لكل المشاكل والآلام التي تعترضه وتحقق الفردوس الأرضي وتنهاي التاريخ.

لقد أضحت اليوتوبيا التكنولوجية إمكانية كامنة أكثر من أي وقت مضى، فقد بلغت التطورات التكنولوجية خلال السنوات الأخيرة مبلغا سيخرج لا محالة عن سيطرة الإنسان، خاصة مع تطور الذكاء الاصطناعي والروبوتات الآلية، التي سيمنح لها الشخصية الاعتبارية وستصبح قادرة على توليد أفعالها وأفكارها بناء على البرمجة التوليدية الذاتية للذكاء الاصطناعي، هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن هذه العلوم والتكنولوجيا تطمح إلى إنتاج كائنات ما بعد إنسانية تتمتع بقدرات أكبر بكثير من البشر الحاليين من خلال؛ الهندسة الوراثية، التكنولوجيا الرقمية، والهندسة الحيوية، بحيث يمكن أن يكون الإنسان ذا ذكاء اصطناعيا بالكامل، أو خليطاً بين الذكاء البشري والاصطناعي، أو ذا وعي محمل أو هجين بين العديد من التعزيزات التكنولوجية التراكمية للإنسان البيولوجي.³³

هذا التطور المذهل للثورة التكنولوجية سيشكل تحديا كبيرا للبشرية ذلك أنه سيعصف بالكثير من البديهيات التي تتحكم في الإنسان حول حياته ومصيره وحول خصائصه النفسية والذهنية والبيولوجية فهذه المختبرات العلمية عازمة على التصرف وإعادة تشكيل وصياغة الطبيعة البشرية، في تحد للخلق الإلهي الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم وسيدعوننا كل ذلك لا محالة للتساؤل عن مصير الإنسان بعد أن فقد مكانته في الكون.³⁴ وسيدعوننا كذلك طرح إشكالية غياب الأبعاد الأخلاقية والدينية في وضع حد للتقدم العلمي المنفصل عن القيمة والمغيب للمرجعيات المتجاوزة.

إن ما بعد الإنسانية كتوجه وعلم قائم بذاته: «يُعد إسقاط وسلب للكرامة الإنسانية، وهذا يعني بصورة أخرى نهاية إنسانية الإنسان، ومنه نهاية الإنسان، لأن الكرامة الإنسانية هي جوهر الإنسان كونها متأصلة في شخصه، وكل عمل على تغيير هذه الطبيعة هو مساس بكرامة صاحبها». فالمساس بكرامة الإنسان والتصرف في طبيعته يشكل تهديدا للبشرية ومساسا بكيونيتها ومصيرها وإبعادا عن جوهرها وغايتها، ولو زودته التقنية بالقوى الخارقة التي تغريه بها.

إن إمكانية نهاية التاريخ في الفترة الأخيرة أصبحت أكثر بروزا وتداولاً، ذلك أن معدلات الترشيح قد تقدمت أشواط كبيرة وبرز لنا ما سيميه المسيري بالإنسان الوظيفي الذي تتحكم فيه آليات السوق والتكنولوجيا فهو لا يحمل أي تركيب إنساني أو عبي أخلاقي أو أي وعي تاريخي، فهو إنسان مسيطر عليه متنبأ بسلوكه. فهو يرتبط فقط بآليات السوق البسيطة وبالعرض والطلب وهي: «آليات بسيطة لا تعرف تركيبية الإنسان وتنكر مقدرته على التّجاوز فهو انسان ذو بعد واحد (يعيش في مجتمعات أحاديّة الخطّ)، وعقله أداتي (يعرق في التفاصيل والاجراءات، ولا يمكنه إدراك الانماط التّاريخيّة ولا تطوير وعيه التّاريخي) فالسّوق (المصنع) بآليّتهما البسيطة يتطلّبان انسانا مادّيّا بسيطاً».³⁵ لقد سيطرة الشركات المتعدد القوميات العابرة للقارات على العالم، وقامت

بالغاء الخصوصيات وأحلت القيم التبادلية العامة محل القيم الأصيلة للأشياء بل وفرضت على المجتمعات القيم الجديدة التي تعبر عن روح الحداثة وما بعد الحداثة في إزالة أي اعتبار للتاريخ والعمق الإنساني.

إن سيطرة النظام العالمي الجديد هو نهاية لما تبقى من الإنسان المتجاوز وتأكيد على الإنسان الطبيعي الخالي من أية مشاعر أو قيم إيمانية أو أهداف غائية، الذي يتعامل بحيادية كبيرة توازي حيادية الطبيعة وهو ما يبرزه علي عزت بيغوفيتش (Alija Izetbegović) بقوله: «هذا العالم الرائع لن يوجد أناس خاطئون، قد يوجد بعض الأفراد المعاقين، ولكنهم لا يكونون مسئولين عن إعاقتهم، ولا يعاقبون عليها، ولذا سيتم فكّهم من الآلة البسيطة. في عالم كهذا، لن يكون هناك خير وشر... ولن يكون إلهام ولا مشكلات ولا شكوك ولا عصيان. هنا يتم القضاء على الدراما وعلى الإنسان وتاريخه، ويرتفع صرح اليوتوبيا»³⁶ وبهذا ينتهي التاريخ ويختفي الإنسان الذي أمره الله بالخلافة ويدخل العالم في صيرورة غير متناهية لا تكثر بالمعنى ولا معنى للهدف.

المآلات والنتائج

لقد شكلت الحداثة -باعتبارها مشروعاً فكرياً- نقلة حضارية كبرى للحضارة الغربية وقدمت للإنسان زخماً معرفياً هائلاً وتطوراً تكنولوجياً مذهلاً، ولكنها مع ذلك لم تنله الفردوس الأرضي الذي كان يتمناه، فبالرغم من تأكيدها على أهمية العقل والمنهجية النقدية والحريات الفردية ووضع حدّ للميتافيزيقا الدينية وتحرير الإنسان من لاهوت العصور الوسطى إلا أنها نقلت عبوديته من مجال الميتافيزيقا إلى مجال عالم الأشياء، التي جعلت الإنسان المعاصر فاقداً لذاته، مكبلاً بشنّات الإنتاج والاستهلاك. وبذلك لم ينته الإنسان إلى ما بشرت به الحداثة؛ فلا السعادة تحققت، ولا الأمن ساد العالم³⁷ بل أصبح يعيش الاغتراب في عالم حرر نفسه فيها من كل القيود، وحقق فيها كل الرفاهية المادية التي كان يتمناها.

- نقترب أكثر من أي وقت مضى في تجسيد وتطبيق آليات ومآلات الفلسفة المادية على أرض الواقع خاصة ما نشهده من التطور السريع جدا في التقنية والتكنولوجيا الذي سيهدد لا محالة من وجود الإنسان مع اكتمال الكثير من المخترعات التي تعبت بطبيعة الإنسان.
- إن مسؤولية المسلمين في زمن الحدائة أعظم من أي وقت مضى ذلك أنهم يملكون من العدة الإيمانية والمرجعية الدينية ما يمكنهم من التصدي لانحرافات العولمة ما لا يملكه غيرهم.
- نجد أنفسنا في الوقت الراهن - أكثر من أي وقت مضى - ضرورة العودة إلى الأخلاق وإلى تأسيس ميثاق أخلاقي لضبط العلم والتقدم التكنولوجي ليس في مجال علم الأحياء والطب وتطبيقاتها وحسب، بل وأيضا في مجال العلوم الطبيعية الأخرى وتطبيقاتها المدمرة (الأسلحة الذرية والكميائية والبيولوجية)

الهوامش:

- ¹ زكرياء إبراهيم، مشكلة الفلسفة، نشر مكتبة مصر 1971 ص 29-30
- ² حسن الكحلاني، الفردانية في الفكر الفلسفي المعاصر، ص 32-33
- ³ أحمد عاطف، النزعة الإنسانية في الفكر العربي، دراسات في النزعة الإنسانية للفكر العربي الوسيط تحرير، مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان، 1999، ص 11
- ⁴ حسن الكحلاني، الفردانية في الفكر الفلسفي المعاصر، ص 33
- ⁵ حسن الكحلاني، الفردانية في الفكر الفلسفي المعاصر، ص 36
- ⁶ زكرياء إبراهيم، مشكلة الفلسفة، نشر مكتبة مصر 1971 ص 38
- ⁷ حسن الكحلاني، الفردانية في الفكر الفلسفي المعاصر، ص 39 نقلا عن wiener.p.vol.ibid598
- ⁸ مصطفى كيجل، تحولات مفهوم الإنسان في فلسفة الحدائة وفلسفة ما بعد الحدائة، مجلة الفكر الإسلامي المعاصر. السنة 24 عدد 95 ص 105
- ⁹ بول تليتش، الشجاعة من أجل الوجود، ت كامل يوسف حسين، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط 1 1981، ص 123
- ¹⁰ زكرياء إبراهيم، دراسات في الفلسفة المعاصرة، الجزء الأول، مكتبة مصر، القاهرة 1968 ص 17
- ¹¹ حسن الكحلاني، الفردانية في الفكر الفلسفي المعاصر، مكتبة مدبولي، ط 1 2004 ص 8

- 12 عبد الوهاب المسيري، دراسات معرفية، نقلا عن ميشال فوكو، ص 40.
- 13 مصطفى كبحل، تحولات مفهوم الإنسان في فلسفة الحداثة وفلسفة ما بعد الحداثة، مجلة الفكر الإسلامي المعاصر، السنة 24 عدد 95 2019 ص 116
- 14 عبد الغاني عليوة، الإنسان الفائق من نيتشه إلى فلاسفة ما بعد الإنسانية سلسلة الأنوار المجلد 13 عدد 2 ص 468
- 15 عبد الوهاب المسيري، الفلسفة المادية، ص 17. موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، عبد الوهاب المسيري، ص 71.
- 16 عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ص 72.
- 17 موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، عبد الوهاب المسيري، ج 1 ص 76.
- 18 عبد الوهاب المسيري، الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، دار الفكر، ط 4، 2010، ص 80 81.
- 19 عبد الوهاب المسيري، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، دار الشروق، مصر، ط 1، 2002 ج 1 ص 462.
- 20 عبد الوهاب المسيري، الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، دار الفكر، ط 4، 2010، ص 84.
- 21 عبد الوهاب المسيري، الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، دار الفكر، ط 4، 2010، ص 86.
- 22 عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية نموذج تفسيري جديد، دار الشروق، ط 1، 1999 ص 78.
- 23 عبد الوهاب المسيري، رحلي الفكرية في الجدور والبذور والثمر سيرة غير ذاتية غير موضوعية، ط 4، 2009، ص 214.
- 24 ريوح البشير، سؤال العلمنة من المسار الإبيستيمولوجي إلى الحدث الأنطولوجي، مجلة إسلامية المعرفة، السنة 19، عدد 76 2014 ص 127-128
- 25 عبد الوهاب المسيري، الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، دار الفكر، ط 4، 2010، ص 132.
- 26 - عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ص 248.
- 27 - عبد الوهاب المسيري، الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، دار الفكر، ط 4، 2010، ص 115.
- 28 رفيق عبد السلام، في العلمانية والدين والديموقراطية، المفاهيم والسياقات، مركز الجزيرة للدراسات، ط 1 ص 45
- 29 - عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية نموذج تفسيري جديد، دار الشروق، ط 1، 1999، ص 249.
- 30 عبد الوهاب المسيري، الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، دار الفكر، ط 4، 2010 ص 137.
- 31 نفس المصدر ص 146.
- 32 نفس المصدر ص 155.
- 33 إسراء محمد كامل أحمد، جينولوجيا ما بعد الإنسان بين الحتمية والتنظير الجمالية، مجلة بحوث في التربية والفنون مجلد 24 عدد 1 ص 365
- 34 مصطفى كبحل، تحولات مفهوم الإنسان في فلسفة الحداثة وفلسفة ما بعد الحداثة، مجلة الفكر الإسلامي المعاصر، السنة 24 عدد 95 2019 ص 119
- 47
- 36 المصدر نفسه، عبد الوهاب المسيري، نقلا عن علي عزت بيغوفيتش، ص 503.
- 37 صورة الإنسان، رائد عكاشة، ص 436
- 38 مصطفى كبحل، تحولات مفهوم الإنسان في فلسفة الحداثة وفلسفة ما بعد الحداثة، مجلة الفكر الإسلامي المعاصر، السنة 24 عدد 95 ص 119-120
- 39 - علي عزت بيغوفيتش، الإسلام بين الشرق والغرب، ص 98.